صفحة من تأريخ المشعشعين

الشيخ عمار آل سميسم

لم يكن للعراق تاريخ يكفل له ضبط الحوادث التي مرت في القرن الثامن إلى أواخر الثالث عشر حيث لم يظهر فيها من أرباب التاريخ والتأليف ما يوصلنا إلى الحقيقة بصورة عامة لسد حاجة المنقب بلغتنا العربية. ولا أقول لم يؤلف في تاريخ ذلك شيء بل أقول ان المؤلفات لم تكفل في هذه الفترة لطالب الحقيقة بغيته. ولم تجمع الحوادث، بل كانت تقتبس قبساً من الشيء الذي يجب أن يدون وتهمل شيئاً بالأحرى ذكره. فكان القليل بخلاف ما قامت به كتب القرن الثالث والرابع الهجري وما والاهما فان كتب تاريخها احاطت بحوادث عصرها وألمّت بما يجب ان يدوّن، اللهم الا بعض الكتب الخطية النادرة الوجود كامثال تاريخ الغياثي وغيره. نعم، توجد كتب تاريخية ألمّت بحوادث ذلك العصر ولكن يا للأسف بغير لغتنا منها باللغة الانجليزية لبعض السواح واهل الشركات وباللغة الفرنسية لبعض اهل الاثار والمنقبين وباللغة التركية يوم كانوا مسيطرين على العراق وباللغة الايرانية حينما كانت الحرب سجالاً بينهم وبين حكومة الاتراك.

واذا اراد الباحث عن تاريخ العراق ان يكتب عن تلك الادوارالتأريخية يعسر عليه أن يعثر على مصادر عربية الا نبذاً يسيرة من هنا وهناك فبقي ذلك التاريخ امانة عند اللغات الاجنبية حتى تصدى لاسترجاعه منها الغيور على

بلاده ووطنه ولغته الاستاذ جعفر الخياط فاضاف إلى الكتب التاريخية العربية بنقله وترجمته كتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) لمؤلفه (المستر استيفن) المفتش الاداري في الحكومة العراقية، وزاد على الترجمة تعليق ما يجب تعليقه وشرح ما يلزم شرحه فجاء للعراق بذلك السفر التاريخي القيم حيث أهمله غيره وحرص على تراث اجداده، فحبذا لو اخذت الغيره ابناء الضاد كما اخذت الاستاذ الخياط ليسترجعوا لنا ما غاب عنا وخفي. والأمل وطيد في الحكومة العراقية واخص منها وزارة المعارف الجليلة بان لجنة صالحة لترجمة الكتب التاريخية الأجنبية لتاريخ بلادنا ليستفيد العراق من ذلك والمستقبل كفيل بتحقيق هذا الأمل وعلى أثر مطالعتي للكتاب المذكور تحت عنوان (داخلية العراق) عام ١٥٣٤م ـ ١٦٣٠ م عثرت على ذكر الامير مبارك مطلب. ولما كان ذكره مجملا احببت تفصيل ذلك خدمة للتاريخ وايضاحاً للفائدة. وها اني اذكره كما يلي:

(الأمير مبارك)

نسبه: هو السيد مبارك بن السيد مطلب بن السيد حيدر بن السيد محسن بن السيد محمد المشعشعي المعروف.

وفاته: كانت وفاته سنة ١٠٣٤ هجرية.

نشأته: بلغت امارة المشعشعين من المجد والرفعة المكانة العالية حتى استولوا على كثير من الأقطار ودانت لهم معظم البلاد المجاورة للحويزة حتى امتدت امارتهم إلى البصرة ولم يقف طموحهم إلى هذا الحد بل بلغت سلطتهم شواطي الفرات والحلة واستولوا على النجف، وهكذا دام حكمهم حتى بلغت الامارة إلى السيد مطلب أبي المترجم.

فتقلص استيلائهم وضعفت سطوتهم حتى انحصرت في [الدورك] (وهو اليوم قضاء تابع للمحمرة) ونواحيه، ولما شب وترعرع ولده المترجم السيد مبارك ذكر مجد آبائه وفكر فيما بلغت امارتهم نظراً لما جبل عليه من الطموح السامي، طمع في ارجاع ذلك السلطان ولما ان اباه كان يسيّر دفة حكمه

بصبغة دينية بعيداً عن الجور والقوة اخذ المترجم يجمع ويشاور خواصه من رؤساء القبائل، كما أنه اخذ يسلب وينهب فاعتبر والده تلك الحركات تحط من كرامته وتنافي سيره الديني. لذلك نفاه عن (الدورك) واقصاه عن موطنه.

عند ذلك فكر المترجم السيد مبارك ان ينزح إلى عشائر العراق المجاورة. وقد كانت حينذاك (قبيلة آل غزي) النازلة على نهر العمارة بيد انه حاذر منهم على نفسه لقضية هناك، وهي ان المنتفك لما استولوا على البصرة ونواحيها وكان زعيمهم يومذاك[١] (يحيى) بن محمد الاعمى وهو أحد اكابر آل غزي في أواخر القرن الثامن أو اوائل القرن التاسع واتصل خبره بالامير السيد [محسن] الجد الثاني للامير السيد مبارك، تهيأ إلى حربه واخراجه من البصرة. وعند تقاتل الجيشين ارسل الامير السيد محسن إلى يحيى زعيم المنتفك ان ليس من الدين اراقة دماء المسلمين بل الرأي ان يبرز كل لصاحبه فيكون القاتل منا لصاحبه هو الأمير فلما سمع يحيى باقتراح خصمه انف من البقاء تحت بوارق قبيلته وقصده بنفسه فكانت النتيجة قتل يحيى على يد الامير واستيلائه على البصرة. ولما بلغ نعي يحيى إلى ابيه محمد وكان أعمى ركب بغلته واخذت زمامها جاريته وقصد سرادق الأمير، ولما ان عرفه رحب به وادناه فطالبه بدية ولده، فاجابه إلى ذلك ودفع إليه الف تومان، ولولد المقتول ـ وكان طفلا ـ جواده الخاص ودرعه، فعرف ذلك الدرع عند آل يحيى بالدرع المحسني، وبقيت قلوب آل غزي حاقدة تغلي على آل المشعشع ينظرونهم بعين العداء.

وكان المترجم يعرف كل ذلك منهم ويخشى من غدرهم به، ولكنه لدهائه وذكائه سلك طريقا مألوفا عند العرب وهو حماية الجار وحفظ المستجير وان كان واترهم فقصدهم بذلك العنوان ولما ان حل بجانبهم رحبوا به ووسعوا له المكان وغضوا ابصارهم عما مضى من البغضاء والحنق.

---

(١) ذكر تاريخ رستم باشا المترجم للألمانية ص ١٤١ الحاكم في اهل البصرة غانم بن يحيى وذكر في تاريخ الغياثي في العقد الخامس من القرن التاسع غانم بن يحيى حاكم البصرة ص ٢٧١.

ولما ان اتصل بتلك الجموع القوية الجانب الغالية عليهم الحياة البدوية والذين كانوا لا يعتمدون على رد مكائد الزمان الا بالغزو والسلب ولم يعيروا الزراعة كبير اهمية وانسوا به، فكر في الدخول معهم في الغزو وراح يشاركهم فيه ولم يطمع في الغنيمة (شأن من يريد إلا المكانة عند قومه) ثم اخذ يتردد على رؤسائهم ويظهر تظلمه ويندب عزه وملكه الذي ابعده ابوه عنه ويشاورهم في ذلك، فاظهروا له المعاونة والطاعة واوعدوه بالمساعدة فحبذ اليهم غزو الحويزة واطرافها من ودزفول وكانت (دزفول) تحت امارة السيد زنبور بن سيد سجاد المشعشعي فاجابوه إلى ذلك.

وجهز جيشاً لا يستهان به من قبيلة آل غزي وتوابعهم وجعل يشجعهم ويمنيهم بالاستيلاء والغلبة وهم مؤمنون بذلك لما يرون من العدة والعدد فيهم ولاعتمادهم على آرائه التي صادفت النجاح في أكثر الغزوات.

فسار بهم وغزى تلك البلاد حتى بلغ أراضي الحويزة ولما عرف السيد زنبور ذلك نفر الناس إلى ذلك الجيش الغازي فتقاتل الجمعان وكانت الهزيمة نصيب السيد زنبور، ففر امامه إلى دزفول، وعندما تم استيلاء الأمير السيد مبارك على الحويزة وما والاها ورأى الفتح حليفه وغزواته موفقة كتب إلى ابيه يبشره بالنصر وفرار الامير السيد زنبور وعزمه على تعقبه، كما أنه اخبره بأستيلائه على بلدة (رامز) وقتله حاكمها مرزه (علي خان) المنصوب من قبل الشاه (عباس) الصفوي الأول. فأخذ الأمير السيد (مطلب) بعد وصول كتاب ولده إليه يفكر في سياسته وتدبيره الحازم وكيف اقتاد القبائل العراقية ولا سيما آل غزي الموتورون، ولكن خاف جانب الشاه عباس فارتاى اقناع الشاه المذكور بصلاحية ولده السيد مبارك للحكم. وعلى أثر ذلك ذهب السيد الأمير مطلب إلى الشاه المذكور لعاصمته (اصفهان) لاسترضائه عن ولده السيد مبارك، ولما علم السيد زنبور بذلك وعرف غرضه اخذ عليه طريقه حتى قبض عليه وجاء به إلى دزفول وحبسه هناك ثم اقسم له ان لم يرجع ولده عن ملكه وديارة ليقتلنّه اشر قتلة فاجابه السيد مطلب إلى ذلك وحلف له على صدقه.

بات السيد مطلب رهنا عند السيد زنبور وجيش السيد مبارك آخذ بالتقدم

والزحف حتى أشرف على مدينة دزفول، وخرج السيد زنبور مدافعا عن المدينة، فانسل السيد مطلب تحت جنح الخفاء وقصد ولده، فلما رآه عرفه وترجل عن جواده واخذ يقبل قدميه واعتذر عن سبب مفارقته له أولاً.

ثم سأل اباه عن سبب مجيئه إليه فقص له حكايته والقسم الذي قسمه إلى السيد زنبور بارجاع ولده عنه فابى السيد مبارك ذلك والح عليه والده لبرّ ذلك القسم، ومما قال له (يا ولدي من تمكن من فتح بلاده مرة امكنه فتحها مرة اخرى).

فرجع السيد مبارك إلى شوشتر كما رجع والده السيد مطلب إلى محله في (الدورك) وتراجع آل غزي إلى ما وراء شط العرب حيث يمّموا اوطانهم، اما بقية القبائل فقد التحق اكثرهم بالسيد زنبور ولم يبق معه عند وصوله إلى (خير آباد) سوى ثلاثة وثلاثين رجلاً. ولما لم يجد في نفسه كفاءة الدفاع كر راجعاً إلى العراق قاصداً عشائر آل غزي، ولما قارب اطنابهم قصد خيمة (خميس) الزعيم العام يومذاك فلم يلق منه تلك الحفاوة السابقة بسبب موافقته لابيه في الكف عن الحرب بعد ان اشرفوا على الفتح النهائي فلما وجد فيهم الإعراض أنف من البقاء عندهم فانتقل عنهم إلى غيرهم. اما السيد زنبور فقد اخذ يطارد السيد مبارك محاولا بذلك صده عن الالتحاق بقبائل آل غزي، غير ان السيد مبارك افلت منه والتحق بها، فكان السيد زنبور يتتبع اخباره حتى اطلع على عدم موافقة آل غزي له وانحرافهم عنه، فاغتنم السيد زنبور ذلك للقضاء على السيد مبارك أولاً واخضاع آل غزي ثانياً، فعبر بخيله ورجله شط العرب فعلم الزعيم خميس بذلك واجتمع مع عبادة ومعد (معن) وهما زعيمان من زعماء قبائله، واجمع رأيهم على الانضمام إلى السيد مبارك ليكون الكل يداً واحدة تحت رايته ورأيه لما علموا من حسن قيادته وبسالته ودهائه، فارسلوا وفداً إليه ليطلب لهم الرضا منه عما وجد فيهم من الاعراض والتوجه اليهم فاجابهم إلى ذلك.

وعند وصوله إلى مضارب آل غزي صادف طلائع خيل السيد زنبور، فثار النقع بين السيد مبارك وتلك الطلائع وتلاحقت قبائل آل غزي واحتدم القتال فكان الظفر في جانب السيد مبارك وانصاره وانهزم جيش السيد زنبور امامه حتى عبّروهم نهر (الكرخة).

ولم يزل يطارده حتى ادخله بلدة (دزفول)، فدخلها من باب وخرج من الأخرى، حيث لم يمكث بها خوفاً وهلعا واستقبل اهل البلدة الجيش الظافر واظهروا له الطاعة، فاقام السيد في المدينة اياما ثم رحل عنها ونصب عليهم أحد اعوانه (مشكور) اميراً عليها عام ٩٩٨ هـ. اما السيد مطلب فلما علم بظفر ابنه الأمير السيد مبارك واستيلائه على دزفول وفرار الأمير السيد زنبور المحمي من قبل الشاه (عباس) الأول حاذر سطوة الشاه على ولده عند ذلك كلف الامام الشيخ (البهائي) وكان وقت ذاك في (المحمرة) ان يتوسط لدى جلالة الشاه.

بالاغضاء عن ولده السيد مبارك ونصّبه اميراً رسمياً على (عربستان) فسعى الامام الشيخ البهائي وانهى مهمة السيد مطلب على أن يدفع ولده مبلغاً من المال وعدداً من الجياد العربية سنوياً للشاه عباس، ثم ان الأمير السيد مبارك توجه من دزفول إلى بلدة [رامزا] وجعلها محل امارته وقام يوطد الأمور ويحكم أساس الحكم لنفسه بالحرب والسياسة وقد نالت عشائر آل غزي عند السيد مبارك منزلة رفيعة ولقوا عنده المكان الأعلى، حيث كانوا أساس ملكه ودعامة حكمه فاقطعهم الأراضي واغدق عليهم الأموال حتى رتب لستمائة رجل من اكابرهم رواتب وتعيينات سنوية، وجعل لهم الزعامة على القبائل، فلم تنزل قبيلة في بلاده الا بموافقتهم وفي ٩٩٩هـ قبض الأمير السيد مبارك على السيد زنبور وقتله، وفي ١٠٠٢ هـ وقعت بين الأمير السيد مبارك وبين آل غزي منافرة ادت إلى وقوع حرب بينهم وذلك أن الأمير طلب من زعيم آل غزي خميس الاقتران بابنته وكانت من أجمل النساء وقتها، مُلحّاً في الاسراع بارسالها عند وصول رسوله إليه، ولما كان هذا النوع من الطلب تأباه العادات العربية لما فيه من دلائل الاحتقار وعدم الخيار لأبيها في القبول والرفض اجابه بالقبول غير انه تهيأ للرحيل في ليلته عن منزله (ابي جاموس) لعدم رضوخه لمثل هذا الطلب وعدم اقتداره على البقاء في محله.

وعند منتصف تلك الليلة غادر منزله هو وعشيرته إلى جهة نهر (دويريخ) وهو الحد الفاصل اليوم بين العراق وايران (الحويزة). اما السيد مبارك فقد كان منتظراً قدوم ابنة الزعيم خميس حتى منتصف تلك الليلة، بيد انه لما يئس

من مجيئها احس برحيل آل غزي، فركب مع جماعة من اخصائه وملازميه واقتفى اثرهم، فوصلت النذر إلى آل غزي بتعقب الأمير لهم، فاختبأوا في الغابات حوالَي نهر (دويريخ)، ولما لم يعثر عليهم الأمير لاختفائهم اخذ ينهب ويسلب الأعراب المجاورة التابعة لآل غزي، وبينما هم مشغولون بالنهب والسلب اذ بفرسان خميس من آل غزى قد قطعوا عليهم خط الرجعة واستلبوا كلما اخذوه من الأعراب واخذوا يطاردون السيد واتباعه حتى فر في الصحراء. فطارده الزعيم خميس وحده حتى لحق به مشهراً سيفه وعند وصوله إليه حياه صباحاً وقال له مستهزئاً ـ كيف وجدت وصال بنت خميس في ليلتك هذه؟ ثم تركه ورجع عنه، ولما رجع السيد مبارك إلى الحويزة وذهب آل غزي إلى نهر العمارة في العراق اخذ الأمير يهيئ لحربهم جيشاً ويعد عدته وبعد مدة قصدهم إلى ولما كان آل غزي أيضاً متهيئون لمقابلته قامت الحرب ودامت لمدة خمسة وعشرين يوماً تلف فيها من آل غزي خلق كثير، وانهكهم الجوع لقطع التموين عنهم حتى اكلوا أكثر مواشيهم، ولما لم يجدوا قدرة على مقابلته ارسلوا إليه وفداً يطلب الصلح والكف عن الحرب مذكرين اياه بمواقفهم الجليلة في سبيل توطيد الامارة له، فقبل عذرهم وعفا عنهم وانعم عليهم وارجعهم إلى اماكنهم في الحويزة ثم لم يتعرض لذكر ابنة خميس:

وفي سنة ١٠٠٤ في شهر صفر عاد الأمير السيد مبارك على المقدمة بالجزائر وقتل الزعيم (ابن يعيش).

وفي ١٠٣٢ ليوم الأربعاء سابع شهر شوال قتل بعض احرار الجزائر بعد ان حدث بينهم بعض الخلاف والخروج على الطاعة وهم صالح وعبدان ابن غالب ومحمود بن عبد الله ومحمد بن اجود ثم بعد ذلك قتل سعد بن ناصر من آل أبي بركة الكربلائي واستولى على (البنادر) و(شوشتر) وكان في ذلك اليوم (اغا حسين) باشاً حاكماً في البصرة، وقد خاف جانب السيد مبارك فاخذ يجاريه ويسترضيه فعين له في كل يوم عشرة الاف شاهية ارضاء له واسكاتاً لمطامعه في البصرة ونواحيها.

وهكذا استمر اغا حسين حتى جاء بعده (محمد) باشا ابن ازيان أحمد فامتنع عن اداء ما كان يؤديه اغا حسين باشا، ثم كتب بعد مدة إلى الأمير

السيد مبارك يأمره بطاعته والانقياد لحكمه، فاستشاط الأمير السيد مبارك غضباً وارجع الرسول خائباً، ولما وصل الرسول إلى (محمد) باشا أمر بالنفير وهيأ لمحاربة الأمير ثلاثة آلاف سفينة لغزو الحويزة ولما بلغ الأمير السيد مبارك ذلك لم يكترث بل ارسل إليه خرجين مملوءين من الذهب على فرسين من جياد الخيل العربية ففتر عزم الباشا وسكن غيضه وارجع الجيش قبل ان يصل، ثم حصلت بينهما معاهدة وصداقه اكيدة.

وفي ١٠٣٣ ارسل على أخيه السيد خلف ابن السيد مطلب فكحله بكحل عمي على اثره لظنه انه كان يحرض عليه (علي باشا، وكانت بينه وبين علي باشا مراسلة شعرية وكان السيد خلف عالما فاضلاً محققاً شاعراً ادبياً له تآليف منها (سيف الشيعة في الحديث) و(حق اليقين في الكلام) و(برهان الشيعة في الامامة) و(الحجة البالغة في الكلام) و(كتاب كبير في المنطق والكلام) ورسالة في النحو ومنظومة في النحو وشرح دعاء عرفة وديوان شعر عربي وديوان شعر فارسي وانه رحمة الله من المعاصرين للشيخ البهائي وقد توفي وهو اعمى.

وقد رثاه السيد شهاب الدين بقصيدة غراء رائعة وفيها يقول:

هو المرء يوم الحرب تثنى حرابه عليه وفي المحراب يعرفه الذكر

ثم توفي الأمير السيد مبارك

وبعد وفاته تولى بعده الامارة ولده السيد ناصر ولم يدم حكمه سوى سبعة أيام ومات بسم دسه إليه ابن عمه السيد راشد.

ثم تولى الامارة بعده الأمير السيد راشد ابن الأمير السيد سالم ابن الأمير السيد مطلب، وكانت ولايته الاثنين ثالث عشر من ذي القعدة، ولكن لما كان قتله للسيد ناصر قذىً في عيون المشعشعين اجمعوا على خلعه يوم الأحد لسبع من شهر جمادى الآخرى، سنة ١٠٣٧ غير أن الأمير السيد راشد لم يسكت عن اغتيال اولئك الذين سببوا عزله بل فكر ودبر واجال رايه واستعمل الدهاء حتى فرق كلمتهم وشتت شملهم إلى أن تغلب عليهم واسترجع امارته في شهر رمضان يوم سابع عشر منه.

ولما رجع إلى حكمه استعمل القوة والسطوة وقتل على الظن والتهمة وساء تصرفه واسرف في القتل فقتل الزعيم عبد ويس وجماعة من زعماء البنادر وشوشتروهم من آل أبي بركة الكربلائي، ولقد اشتدت همته في قتل زعماء القبائل وكثر جشعه في قبيلة آل معاوي[١] ولقد اتخذ شتى فنون الحيل والمكر حتى صنع مأدبة ودعا لها ستمائة رجل من البارزين بين قبائلهم، فقتل الجميع في تلك الليلة ولم يفلت منهم احد.

وكانت تلك الوقائع المليئة بالأغتيال من ابشع صور الانسانية الهمجية. وفي شهر جمادى الآخرى سنة ١٠٣٨ هـ قتل الأمير السيد راشد كل من السيد طالب أبي بركة والسيد صالح ابن عبد علي وهما من آل المشعشع غير ان دخيلة السيد راشد لما لم تهدأ والقبائل العربية لم تسالمه ولا سيما آل غزي جمع جيشاً جراراً وقاده بنفسه فأخضع سائر العشائر حتى قصد آل غزي، ولما علموا بتوجهه غادروا اوطانهم متوجهين نحو البصرة.

بيد ان السيد راشد لم يتركهم وعندما رأى آل غزي انه لا يتركهم التجأوا إلى الأمير (افراسياب) ابن حسين باشا وكان ذا مكانة سامية عند والي البصرة (علي) باشا فأرسل افراسياب رسولاً منه إلى الأمير السيد راشد يطلب منه العفو عنهم ويذكره بالعهد الذي بينه وبين المشعشعين ويرجوه السماح لهم بالرجوع إلى اوطانهم فرد السيد راشد طلبه واخذ يهاجم آل غزي، ولما رأى (افراسياب) صنعه طلب من والي البصرة جيشاً لمساعدة آل غزي، فنفذ والي البصرة ذلك الطلب، فقوي جانب آل غزي وزحف زعيمهم (خميس) بجيشه المنضم إلى قبائله على جيش الأمير السيد راشد فتزعزع جانب الأمير واخذ يتقهقر.

مجلة الغري السنة الثالثة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢م

---

(١) آل معاوي قبيلة كبيرة تقطن اليوم في لواء المنتفك مع قبائل آل حميد الذين يرأسهم الزعيم.